جامعـة
المنصــورة
كليـــة الآداب

تبادل الأدوار فى الصورة القرآنية
دراسة تحليلية

إعـــداد

الدكتور / أيمــن الســيد الصيـــاد

أستاذ الادب العربى المشارك

جامعـــة طيبـــة – المدينـة المنـورة

مجـــلة كلـــية الآداب – جامعـــة المنصـــورة
العدد الثانى و الخمسون – يناير ٢٠١٣

تبادل الأدوار في الصورة القرآنية

دراسة تحليلية

دكتور/ أيمن السيد الصياد

مقدمة البحث

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أُحكمت آياته، واختيرت كلماته، وأُبدعت جمله، وعلا أسلوبه، واتفقت معانيه، وأتلفت مبانيه، فلا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا، ولا تجد فيه اختلافًا ولا تناقضًا، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] ومن ثمّ كان القرآن الكريم مناط أنظار العلماء، وموضع عنايتهم قديمًا وحديثا.

استوقفنا القرآن الكريم خلال هذه الدراسة عند فكرة "تبادل الأدوار في الصورة القرآنية"، وذلك بعرض أنماط مختلفة من تغيّر المواقف النفسية أو الدينية أو الاجتماعية، أو تغيّر الطبيعة النمطية لبعض الشخصيات، خلال بعض أحداث القصة القرآنية، كأن يتحول دور بعض الشخصيات من مهمة الخداع والتضليل إلى ارتداء قناع الوعظ والإرشاد، أو يتحول الجاني إلى مجني عليه لبعض الوقت.. إنها فكرة عن تقمص بعض الشخصيات القرآنية – عن قصد أو دون قصد – لأدوار ليست هي أدوارها الرئيسة المنوطة بها، أو هكذا عرضها القرآن الكريم في كثير من قصصه، ومن ثمّ فنحن ندرس أولا الملامح التصويرية العامة لهذه الشخصيات كأساس ومنطلق لتحديد ملامح التغيّر والتَّبدّل التي حدثت في صورة هذه الشخصيات خلال مواقف وأحداث بعينها.

وكان من أسباب اختيار الموضوع: اتساع حجم المادة العلمية للدراسة، وتكرار فكرة تبادل الأدوار خلال عديد من المشاهد التصويرية التي عرضها القرآن خلال آياته لبعض الشخصيات والنماذج البشرية، إضافة إلى تنوع الوظائف الدلالية

نتيجة التركيز على فكرة تبادل الأدوار، واختلاف أنماط الصورة القرآنية باختلاف الشخصيات، وأدوارها المنوطة بها.

وتهدف هذه الدراسة إلى خدمة كتاب الله ﷻ ولغة كتابه العزيز، وبيان وجه جديد من وجوه الإعجاز التصويري خلال الآيات القرآنية بعرض فكرة تبادل الأدوار لبعض الشخصيات والنماذج البشرية خلال بعض المشاهد القصصية، والكشف عن أهم الوظائف النفسية والدينية والاجتماعية التي تحقَّقت مع فكرة تبادل الأدوار، والتأكيد على التوافق السمعي والبصري والحركي خلال الصور القرآنية موضع الشرح والتحليل، وتحديد الأنماط التصويرية المختلفة المترتبة على تبادل الأدوار داخل الصورة القرآنية من سخرية وتضليل وإغراء ، وتركيب وحوار وارتداد.. ويسعى الباحث إلى استخدام المنهج التحليلي لتحقيق الأهداف السابقة من خلال العرض والشرح والتحليل والمقارنة بين المواقف المختلفة للشخصية الواحدة.

كما نأمل – بعون الله وتوفيقه – الاستفادة من هذه الدراسة من خلال: المساهمة في خدمة الدين الإسلامي بدراسة أحد وجوه الإعجاز القرآني؛ الأدبي والبلاغي من خلال فكرة تبادل الأدوار في الصورة القرآنية، وأخذ العبرة والعظة من خلال بيان الوظائف النفسية والدينية والاجتماعية المترتبة على عرض وتحليل فكرة تبادل الأدوار، وبيان وسيلة جديدة من وسائل القرآن التصويرية خلال سرد بعض الأحداث من خلال عنصر التشويق الحاصل كنتيجة لتبادل الأدوار للشخصيات عما هو معهود بها في مواقف أخرى، وبيان قدرة النص القرآني على استحضار الصورة جلية واضحة، فتكون أوضح رسمًا، وأوقع أثرًا، إضافة إلى الرغبة الصادقة في مساهمة جادة لاستكمال منظومة العمل الجماعي الذي يسعى لخدمة القرآن الكريم، وإثراء المكتبة القرآنية بهذا العمل المتواضع.

وعنوان الدراسة هو " تبادل الأدوار في الصورة القرآنية" ونقصد بالتبادل؛ التَّبدُّل والتغيّر عن قصد وبدون قصد من بعض الشخصيات القرآنية، أما الأدوار؛

فالمقصود منها الوظائف والمهام المنوطة بهذه الشخصيات أو الطبيعة السلوكية لها، وبالطبع ستعتمد الدراسة على الشخصيات القرآنية من الرُّسل والأنبياء وغيرها من الشخصيات والنماذج البشرية، ودراسة سلوك هذه الشخصيات بشكل عام للوقوف على الملامح الأساسية لها خلال الفكر والقول والعمل، ثم دراستها مرة أخرى حال التبدّل والتغيّر، وما هو دورها الجديد، وما هي ملامحها؟ وما أسباب التبدّل الأدوار؟ وما هي النتائج والآثار المترتبة على تبادل الأدوار؟ كل ذلك في إطار الصورة القرآنية، وتحليل لمفرداتها وأركانها ومؤثراتها.

أما مصطلح "الصورة" فهو من المصطلحات الشائعة التي تحدث عنها النقاد قديمًا وحديثًا مع اختلاف المسميات حتى بلغوا الحدّ في شرحه وتحديد أشكاله ومصادره ووظائفه[١] وكادوا يجتمعون على أن "التصوير صياغة جديدة لمفردات اللغة وتراكيبها، بحيث تضعها في شكل غير اعتيادي مع معانيها المجردة، وتلقي بظلالها على القارئ، فتجعله مشاركًا في الحدث، ومؤديًا بدوره في نسج خيوطه، ومحتفظًا بحقه في اكتشاف أبعاده، والوقوف على أهدافه، ومستمتعًا بجرس العبارة وتحليق الخيال، ودقة التشبيه، ولمحة الكناية"[٢] ويرى الباحث أن تكون الدراسة من خلال مقدمة وستة مباحث وخاتمة وقائمة بمصادر البحث ومراجعه.

الشيطان بين الخديعة وقناع الوعظ

الشيطان هو إبليس وهو روح شرير مُغوٍ بالفساد[٣] والشيطان الذي حدثنا الله عنه كثيرًا في القرآن من عالم الجن، كان يعبد الله في بداية أمره، وسكن السماء مع الملائكة، ودخل الجنة، ثم عصى ربَّه عندما أمره أن يسجد لآدم استكبارًا وعلوًا وحسدًا، فطرده الله من رحمته[٤]. والشيطان في لغة العرب يطلق على كل عاتٍ متمردٍ، وقد أطلق على هذا المخلوق لعتوه، وتمرده على ربه. وأطلق عليه لفظ الطاغوت لتجاوزه الحد، وتمرده على ربه، وتنصيبه نفسه إلهًا يُعبد[٥].

بعد أن يئس الشيطان من رحمة الله بعد حكمه ﷻ:﴿**قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الحجر: ٣٤- ٣٥]، وهنا توعد آدم وذريته، وأقسم على فسادهم وهلاكهم، قال تعالى: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [ص : ٨٢]، وهنا حذّر المولى تبارك وتعالى آدم: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**﴾ [طه: ١١٧]، واشترط المولى تبارك وتعالى على آدم لبقائه في الجنة: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ٣٥].

إن الأحداث القرآنية خلال القصة لتُحدِّد نقاطًا مهمة خلال الصورة القرآنية من بدايتها وحتى النهاية منها:

- الاعتراض الشيطاني على مكانة آدم عليه السلام.
- العقاب الإلهي للشيطان وطرده من رحمة الله.
- التأكيد الإلهي لآدم وزوجه على عداوة الشيطان لهما وذريتهما.
- دعوة آدم لدخول الجنة والإقامة والنعيم.
- التأكيد والنهي عن الأكل من شجرة واحدة في الجنة.

هذه هي الخيوط الرئيسة للقطة التصويرية من الصورة الكلية التي تضم أطياف القصة القرآنية والخاصة بقصة آدم عليه السلام وإبليس، فهناك "رب العزة، وآدم، وزوجه، والملائكة، وإبليس" وقد تحددت الأدوار، وظهرت الملامح النفسية والدينية؛ فالملائكة: لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. وآدم: وضعه المولى ﷻ في أعلى منزلة. وإبليس: شيطان متمرد، عصى الله، ورفض السجود لآدم، وأقسم على غوايته وذريته، فهو يرى نفسه أفضل منه وأعلى منزلة.

وتبدأ اللقطة التصويرية الثانية بقوله تعالى: **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ**

لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ [الأعراف].

وهنا يخلع الشيطان لباسه؛ لباس الغواية والإفساد، ويرتدي قناع الوعظ والإرشاد، فيحاول أن يتقمص دورًا بعيدًا عن شخصيته الحقيقية، حتى يتم له الأمر وينخدع آدم وزوجه "فجاء الشيطان لهما من جهة ما تريده النفس البشرية، وتتمناه .. وهو حياة خالدة لا تنتهي ولا تزول .. وملك دائم لا ينفذ... (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) والشيطان كاذب فيما يقول .. فلو كانت هذه شجرة الخلد فعلا لأكل منها الشيطان نفسه، وأصبح خالدًا لا يموت، ولكن طلب من الله أن يبقيه إلى يوم القيامة، لأنه يعلم يقينًا أن الله هو خالق الحياة .. وأنه وحده هو الذي يبقيها أو يذهبها"[٦].. قال تعالى: ﴿ **قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٤].

ولم تكن فكرة العصيان بتدبير من آدم وحواء، فلم يكن الخروج على الطاعة رغبة منهم في العصيان، ولا تكبرًا على طاعة الله، وإنما كان بتحريض من الشيطان، الذي خرج على أمر الله في السجود لآدم فعصاه، وعندما طرده الله من الجنة توعد الشيطان لإخراج آدم من الجنة كما خرج هو حسدًا وتكبرًا.[٧]

وكان الشيء الذي رغّب الله آدم فيه هو الذي رغّبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على احتراس عن تلك الشجرة، وإبليس وقفه على الإقدام عليها، ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله مولاه وناصره ومربيه، أعلمه بأن إبليس عدوه... كيف قبل الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له، وأعرض عن قول الله تعالى؟![٨] لقد نسي آدم أن الله جل جلاله وضعه وزوجه في الجنة وقال له﴿ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ بشرط واحد؛ فتشقى!

إن دافع حُبّ البقاء ودافع التملك هو مدخل الشيطان إلى نفس آدم فوسوس إليه..[٩] بشجرة الخلد وملك لا يبلى "ولم يفكر آدم ولو للحظة واحدة، أو ينظر .. من يُحدّثه وينصحه بالخلود والبقاء؟! إنه إبليس من عصى ربه، وطُرد من رحمته، وأعلن عداوته لآدم وذريته، فها هو الآن يتلطف في الحوار".[١٠] مع آدم فنرى نبرة الصوت المنخفض، والكلام المعسول الذي يُشعر آدم بالطمأنينة فيركن إليه، لأن إبليس خاطب هوى النفس الإنسانية وشغفها بالحياة، وحُبّ التملك والحكم والسلطة.

يقول ابن القيم: ومن مكايده أنه يسحر العقل دائمًا حتى يكيده.. فيزين له الفعل الذي يضرّه، حتى يُخيّل إليه أنه أنفع الأشياء، وينفّر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يُخيل له أنه يضرّه".[١١]

إن فكرة تبادل الأدوار من خلال صورة الشيطان في القرآن، ودوره في الغواية لتظهر بأدق تفاصيلها في قصة آدم وشجرة الخلد، كما أظهرت هذه القصة وسائل الشيطان المتعددة في الغواية والتضليل، وقدرة النص القرآني على نسج خيوط تصويرية غاية في الدقة والتأثير، فتظهر ألفاظ مثل: الوسوسة – قاسماهما – هل أدلك – شجرة الخلد – ملك لا يبلى.. فالشيطان أخفى حقده وغروره وعداوته لآدم، وارتدى قناع الوعظ والخديعة، فوسوس إليه في صوت خفيٍّ، كأنه حريص على سرية الحوار، وحتى يُوهم المستمع – آدم – بخطورة المعلومة، "ثم أقسم لهما على صيغة المفاعلة من باب المبالغة".[١٢] على أهمية وخطورة النصيحة.

ولم يكتفِ إبليس بالوسوسة والقسم، بل أدرك أنه أثار الفضول في نفس آدم فقال له وكأنه يستدرجه للمرحلة الثانية: هل أدلك؟ فعرض الخدمة في صيغة الاستفهام الإغرائي، وينتقل مباشرة للمرحلة الثالثة في دور الخديعة، ولا يترك فرصة لآدم ليفكر أو يقرر؛ هل أدلُّك على شجرة الخُلد ومُلك لا يبلى؟ ويقع آدم في المحظور، ونسي ما أمره الله به من عدم الاقتراب من الشجرة، وهي لحظة واحدة كانت كافية ليحقق الشيطان مأربه. " فالشيطان يعمل دومًا على إيقاع أعدائه في

نسيان ما أمرهم الله به، أو ما نهاهم عنه، ولو للحظة واحدة، علّه يفوّت عليهم خيرًا أراده الله لهم، أو يُوقع في شرٍّ كرهه الله لهم".[١٣]

الصراع النفسي بين العاطفة والاختيار

إن الله ﷻ يبتلي عباده المؤمنين على وجه الاختيار والامتحان، ليتبيّن مخبوء نفوسهم، ومدى طاعتهم في الشدائد... وعلى هذه السنة الإلهية امتحن الله خليله إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل، كما امتحن بهذا إسماعيل نفسه"[١٤]. قال تعالى: **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾** [الصافات].

لقد رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أن يذبح ابنه، ورؤيا الأنبياء نوع من الوحي،[١٥] لكن ما هي ملابسات الصورة القرآنية؟

إن الابن المقصود في الرؤية هو ولده إسماعيل عليه السلام، وشاء الله أن "يقضي إبراهيم وزوجه ما شاء الله أن يقضيا دون ولد، وألحت على إبراهيم أمنية أن يكون له ولد صالح، فدعا ربّه: ربّ هب لي من الصالحين، فاستجاب له ربّه، ومعنى ذلك أن إسماعيل كان وحيد والديه، وأنه جاء بعد شوق وتمنٍ، وضراعة إلى الله، وهذا جعله مما يزيد في حبّ والديه، وتشبثهما به، وحرصهما على إبعاد كل أذى عنه".[١٦]

وهنا تحدث المفارقة العجيبة التي تؤكد على الإيمان الراسخ، وصحة العقيدة في قلب إبراهيم عليه السلام، فولده الوحيد الذي انتظره دهرًا طويلا، ودعا ربّه من أجله، هو الآن مطالب بذبحه، فماذا يصنع؟! بالطبع لو نظرنا إلى الحدث بمقاييس عامة البشر سيكون الجواب بالنفي، فمن الطبيعي أننا سنقول: إن دور الأب هو حماية ولده وحسن تربيته، والمحافظة عليه، ودفع كل أذى عنه بكل وسيلة وقوة ممكنة، ما استطاع لذلك من سبيل.

لكن الأمر هنا ليس في نطاق عامة البشر، وإنما هو نبيّ، بل أبو الأنبياء، خليل الله، إبراهيم عليه السلام، فإذا به يخضع لأمر الله، ويسارع ليخبر ولده، ولكن هذا الامتثال والتسليم لأوامر الله من إبراهيم لا ينبغي أن تنسينا نفسيته " بوصفه أبًا كريمًا رحيمًا، وبمشاعره حين يتصور أنه سيذبح ابنه الوحيد بيده، وما يثيره مرأى ابنه الوادع المستسلم، ... وما يحتاجه هذا الموقف الرهيب من قوة هائلة لمغالبة النفس، وما يصطرع فيها من غريزة الأبوة، وعاطفة الرحمة بالولد".(١٧)

إنه موقف من أعظم مواقف الابتلاء.. تبدّلت في الأدوار النفسية والاجتماعية بشكل مؤثر وعجيب من خلال صراع نفسي أحاط بالوالد وولده، فكلاهما مطالبان بأمر يخالف طبيعة البشر ودورهم! فشخصية الوالد الحامي لولده تتحول إلى شخصية تسعى لذبحه، وكأنه أمر طبيعي؛ ويسير الحوار بين الوالد وابنه في هدوء وسكينة، وإنك لتعجب من هذا الموقف النفسي الرهيب للوالد وولده.. فحتى الابن " لا يتردد في الاستجابة، وتلبية أمر الوالد، وبهذا يقدم مثلا رائعًا لطاعة الوالد وبرّه".(١٨)

فيسارع إبراهيم في عرض أمر الله ﷻ على ابنه، وهذا العرض على الولد لم يكن " ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله، فيثبت قدمه، ويصبّره إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلّم، وليعلمه حتى يراجع نفسه، فيوطئها ويهون عليها، ويَلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله".(١٩)

ولا يجد إبراهيم عليه السلام من ولده إسماعيل عليه السلام إلا الطاعة والرضا والاستسلام، فقال: يا أبت افعل ما تؤمر.. ، وهو تعبير "عن موافقة الابن لأبيه ليست بالقبول باللسان فحسب، بل بصدق الجنان المؤيد لأبيه أنها رؤيا منامية، ولكن الابن لم يقل شيئا من هذا بل استجاب استجابة ربانية تنفيذًا لأوامر الله تعالى عن طريق الرضا بالقدر والمصير".(٢٠)

إننا كلما "قرأنا تلك القصة المعجزة العجيبة الفريدة المليئة بالإثارة والتشويق الذي يحبس الأنفاس، ويحرك المشاعر، ويحرص المؤمن في كل زمان ومكان على جعل طاعة الله والاستجابة لأوامره فوق كل اعتبار".(٢١)

إنها حالة من حالات تبادل الأدوار النفسية والاجتماعية لبعض الشخصيات داخل القصة القرآنية عما هو متعارف عليه بين عامة البشر، فمع كون الآيات القرآنية التي تسرد المشهد التصويري قليلة في عددها غير أنها كبيرة في معانيها وآثارها النفسية التي تجعل المستمع أو القارئ في أول أمره يُصاب بحالة من الذهول من هذا التمهيد القصصي، وهذا الإطار النفسي الذي يغلف جو الصورة بالسكينة والموسيقى الهادئة.. فالسياق العام للمشهد يسير بهذا الترتيب:

- فلما بلغ معه السعي– عبادة وطاعة ومشاركة وعاطفة قوية بين الوالد وولده (معه).
- يا بني – نداء الأبوة بعطف وصدق وحنان.

وتأتي المفاجأة الأولى:

- إنّي أرى في المنام– رؤيا قد يصدقها الابن أو يرفضها كعامة البشر.
- أنّي أذبحك – أقتلك، دون ذنب أو جريمة، وإنما رؤيا.
- فانظر ماذا ترى– مشاورة وحوار وترغيب في الأمر.

وتأتي المفاجأة الثانية:

- الابن – إسماعيل بشر ما زال في ريعان شبابه؛ نعم هو مطيع لوالده، مؤمن بربه، لكنه بشر يحب الحياة، ولديه أسبابه، لكن العجيب في الأمر هو ردّ فعله وكأنه تقمص دورًا آخر.. يتحدث نيابة عن شخص آخر سيذبح.
- يا أبتِ– صراع نفسي عجيب؛ أنت أبي وأنا ولدُك ولكَ عليَّ الطاعة.
- افعل ما تؤمر – الثقة والإيمان المطلق بأن الأمر من عند الله.
- ستجدني إن شاء الله من الصابرين . زيادة في الصراع النفسي ما بين قلب الوالد، وقلب ابنه المؤمن المطيع، وكأنه يحاول أن يربط على قلب والده.

إنها النفس الآمنة المطمئنة "التي استوعبت قدرة الله، وتبلور فيها الإيمان العميق، والثقة بالغيب، لا يستفزها خوف ولا حزن، لأنها سكنت إلى الله، واطمأنت بذكر الله، وأنِستْ بقُرب الله، فهي آمنة مطمئنة، تحسّ بالاستقرار النفسي والصحة النفسية".(٢٢)

لقد كان إبراهيم عليه السلام مثالا في حصافة الرأي، وحبّ التطلع إلى اليقين، والامتثال لأمر الله في تفان وإخلاص، والرفق والحلم، والرأفة والحنان، وقد تجمع في شخصه جليل الخصال ما تفرق في غيره من الناس على مدى الأجيال فكان أمة برأسه".(٢٣) وهذا ما جعل فكرة تبادل الأدوار لدى إبراهيم ما بين الدور المنوط به في شخصية الأب الحامي المدافع عن ولده، وبين الدور الآخر المنوط به كنبيٍّ ومؤمن بالله وقضائه وقدره، وطاعة ربّه المطلقة، التي لا يقف أمامها حاجز، أو يمنعها حبّ الدنيا أو المال أو الولد، إنه الإيمان المطلق، والثقة المطلقة بقضاء الله وقدره.

كان هذا هو الابتلاء العظيم، والاختبار المرير، ولكنه خرج من هذا الصراع النفسي وتغلّب على عاطفة الأبوة، ودوره في حماية ولده، بقوة إيمانه، وثقته في الله، وأنه دائمًا يختار لعبده الخير، وكان الجزاء من جنس العمل.. وفاز الاختيار الإلهي،

والطاعة الربانية على العاطفة وحبّ الدنيا والولد، فجاء الفداء لولده إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم "إنّا كذلك نجزي المحسنين".

خداع الذات والجهر بالمعصية

لقد شاءت سُنة الله أن يخلق البشر ذكرًا وأنثى، وأن يجعلهما شقين لنفس واحدة تتكامل بهما، وأن يتم الامتداد في هذا الجنس عن طريق النسل، وأن يكون النسل من التقاء ذكر وأنثى.. ومن ثمّ ركّبهما وفق هذه السُّنة صالحين للالتقاء صالحين للنسل عن طريق هذا الالتقاء، مجهزين عضويًا ونفسيًّا لهذا الالتقاء.(٢٤)

لكن النفس الأمارة بالسوء من بني البشر التي " تسيطر عليها الدوافع الغريزية، وتتمثل فيها الصفات الحيوانية، وتبرز فيها الدوافع الشريرة، فهي توجه صاحبها بما تهواه من شهوات، ولهذا كانت مأوى كل سوء".(٢٥)

لقد بعث الله لوطًا عليه السلام إلى أهل سدوم قرب البحر الميت " وكان أهلها ذوي أخلاق فاسدة، وطوية سيئة؛ لا يتعففوا عن معصية، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، وكانوا من أفجر الناس، وأقبحهم سيرة، يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق... لا يردهم عن ذلك دين، ولا يصدهم حياء، ولا يرْعَوون لوعظ واعظ، ولا يستمعون لنصيحة من عاقل، وكأن نفوسهم الظامئة إلى الإثم لم تروها تلكم الذنوب، وأفئدتهم المتعطشة إلى الإجرام لم تكفها تلكم القبائح، فابتدعوا فاحشة لم يُسبقوا إلى اجترامها، وتعاطوا مُحرمًا ما كان يدور بخُلد أحد اقترافه، فكانوا يأتون الذكران من العالمين، ويذرون ما خلق الله من النساء؛ فلا يقربوهن".(٢٦)

والأخطر من هذا الجُرم أنهم لم يستروا بليتهم، أو حاولوا التخلص من عارها، ولكنهم كانوا يجاهرون بالمعصية، ويحملون الناس على مشايعتهم.. " وبالرغم من دعوة لوط عليه السلام، وإخباره لهم أنه رسول الله إليهم، وأنه يريد لهم الخير بدعوته؛ لم يؤمن له قومه بل قالوا: أخرجوه ومن آمن معه من أهله بحجة أنهم أناس يتطهرون، ثم هددوه بالقتل رجمًا بالحجارة إن لم يكف عن دعوته".(٢٧)

قال تعالى: وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ [هود].

إنه مشهد قرآني عجيب حيث نرى قومًا يُجاهرون بالمعصية، ويُجادلون من أجلها، ويدعون إليها وكأنهم على صواب عقليًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا، فقد تبدَّلت الأدوار، واختلطت المشاعر، وحارت العقول في نفسية هؤلاء القوم.. فالآيات القرآنية تُظهر لنا نوعًا فريدًا من تبادل الأدوار بين ردود أفعال المؤمنين والكافرين.

لقد كفر قوم لوط بنعم الله، وكذّبوا رسوله إليهم، وهددوه بالقتل، وسخروا منه، وأعلنوا طرده هو ومن آمن معه، لماذا؟ لأنهم أُناس يتطهرون! " وهذا هو العيب ليس في مكانه بشيء.. فقد عابوهم بغير عيبٍ"[٢٨] وإننا لنرى تصرف القوم حينما علموا بوجود ضيوف في بيت لوط عليه السلام:

- جاءه قومه: من أهل بلدته التي بُعث فيهم.
- يهرعون إليه: يهرولون مسرعين يسوق بعضهم بعضًا للإسراع.[٢٩]
- كانوا يعملون السيئات: يجاهرون بالمعاصي ولا يستترون ويتباهون بها.
- لقد علِمتَ: بصيغة الماضي المُحقق والمعلوم لدى لوط برغبتهم.
- ما لنا في بناتك من حقٍّ: جهر بالمعصية، وإعلان رغبتهم الشهوانية.
- وإنك لتعلم ما نريد: التأكيد والجهر بالمعصية، وقناعتهم بأن لوطًا عليه السلام يعرف رغبتهم وهدفهم، وقالوا: لَتعلم؛ زيادة في التأكيد على علمه بمرادهم.

والإيحاء خلال قولهم " وإنك تعلم ما نريد" يجعل القارئ للآيات يستشعر هذه الروح الشهوانية التي تسيطر على المشهد التصويري كله[٣٠]، وتتغلغل في جميع اطراف الصورة، فكان الإيحاء كفيلا بعرض رغبتهم، ليس كنوع من الإيحاء لوجود حياء في ضمائرهم، وإنما هو إيحاء العاصي الكافر المُجاهر بالمعصية، وهو يعلم في نفسه أنه يطلب شيئًا ليس من حقِّه، ولكنه الجهر بالمعصية، وسيطرة رغباتهم عليهم سيطرة كاملة.

وهذا هو حال الإنسان " إذا فشل في ضبط دوافعه والتحكم فيها، فأسرف في إشباعها، وانغمس في لذاتها، وجعل الحصول على لذة الإشباع هدفًا في ذاته، انحرفت الدوافع عن أهدافها الحقيقية، فلم تعد بعد وسيلة الاستمرار حياة الفرد وبقاء النوع، وإنما أصبحت غاية في ذاتها، ولم يعد الإنسان هو المسيطر عليها، والمتحكم فيها، وإنما أصبحت هي المسيطرة عليه والمتحكمة فيه".[٣١]

وإذا كان موقف قوم لوط ﷺ موقف الكافر المجاهر بالمعصية الذي يفرض رأيه، ويصرح بطلبه، ويضع شروطه، فنجد أن موقف لوط ﷺ نفسه يختلف عنهم تمامًا، وهو رسولهم، وهو على حقٍّ، وعلى الرغم من ذلك نراه خلال المشهد التصويري في موقف الخائف.. المدافع .. المتوسل.. يقول في مقام الاستعطاف:

- قال يا قوم: نداء استعطاف ورجاء، وتذكيرهم بأنهم قومه وهو منهم، وهم أولى الناس بالحفاظ عليه وعلى ضيفه.
- هؤلاء بناتي هن أطهر لكم: يحاول أن يثنيهم عن الأمر بتذكيرهم بصحيح الفطرة، وأن الأصل هو الزواج بالنساء.
- اتقوا الله: التذكير بتقوى الله والعودة إلى رشدهم.
- ولا تخزونِ في ضيفي: يتوسل بمراعاة حُرمة الضيف، وأن له حقًّا عليهم.
- أليس منكم رجل رشيد: وهو استفهام للإنكار والتوبيخ كإشارة بفقدان الأمل.

- لو أن لي بكم قوة: لدفعهم عن حُرمة الضيف وارتكاب الفاحشة، لكنه يقول: لو؛ وهي شرطية تفيد امتناع وتحقق ما بعدها لامتناع وجود الشرط نفسه، وهي القوة، فهو لا يملكها لردعهم، ما دام النصح والرجاء لا يؤثر فيهم.
- أو آوي إلى ركن شديد: يتمنى الحماية له ولضيفه في مكان حصين منعزل.

إن الموقفين السابقين بين لوط ﷺ وبين قومه – عليهم لعنة الله – في كيفية التعامل مع الحدث غاية في الغرابة لمن لا يعرف طبيعة قوم لوط ﷺ وأن هناك مرضً لعينًا تملّك من قلوبهم، وسيطر على عقولهم، وأعمى أبصارهم، فهم لا يشعرون ولا يفكرون ولا يبصرون إلا الفاحشة! والأكثر غرابة في الأمر هو الجهر بالمعصية، والدفاع عنها بكل تلك القوة والجرأة، وكأنهم يطالبون بحق لهم، بل صاروا يسخرون من لوط ﷺ ومن آمن معه[٣٢]، ويفتخرون بما هم عليه من القذارة! في حين نرى لوطًا ﷺ يتحدث إليهم وينصحهم، ثم يتوسل إليهم، ويطلب العون والحماية، وكأنه هو المذنب الباحث عن النجاة من ذنب اقترفه، وهذا ما دعوناه بتبادل الأدوار، أو ردود الأفعال المعاكسة تجاه الحدث، ما بين المؤمن الداعي إلى الحق بالنصح والإرشاد والتوجيه .. في حين نراه في موقف التوسل والرجاء، وبين الكافر المجاهر بالمعصية، وأي معصية؟! إلى فاحشة وفعل قذر لم يسبقه في جُرمه أحد من العالمين، ويخالف الفطرة السليمة، ومع هذا كله .. نراهم يتصرفون ويتحدثون من موقع القوة والافتخار بطلبهم، بل ويهددون ويسخرون من لوط ﷺ ومن آمن معه!!!

وكان الجزاء من جنس العمل؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ [الإسراء : ١٦].

إيهام التضاد بين الجاني والضحية

حين تتحول الضحية إلى متهم بارتكاب الجريمة، ومن ثمَّ تتحول الأضواء خلال المشهد التصويري في اتجاهها، ومحاولة إلصاق أدلة الاتهام بها، ويصبح المشهد التصويري في غاية الاضطراب والتضاد الفكري والنفسي بين كل الأطراف،

فالجاني يُوهم نفسه ومن حوله بالصدق والبراءة، في محاولات يائسة لدفع التهمة عنه، في حين أن المجني عليه "الضحية" قد تضع نفسها في أحد أمرين؛ إما الدفاع عن النفس، ومحاولة البرهنة على براءتها، وإما أن تقف مكتوفة الأيدي واللسان، فلا تحرك ساكنًا من هول المشهد، وصدمة الافتراء والتزييف من قِبل الجاني حين يصرخ طالبًا القصاص من الضحية "المجني عليه"!!

وهنا يحدث تبادل للأدوار بين الشخصيات خلال المشهد التصويري، أو هكذا يحاول الجاني أن يُوهم المستمع أو المشاهد، وهذا ما حدث في قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، قال تعالى: **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾** [يوسف] .

وكانت البداية بالمراودة من امرأة العزيز[٣٣] على صيغة المفاعلة والتكرار مرة بعد مرة، وحين يئست من استجابة يوسف لها بالحديث حدث ما حدث.. "فالمراودة منها، وفي بيتها، ودون رغبة من فتاها الذي كان بمنزلة الابن. وها هي تُحكم غلق الأبواب، ثم دعته إلى نفسها قائلة: هَيْتَ لك! ولما ذكرها بمكانها ومكانة زوجها منه، وإيمانه بالله تعالى، همَّت به، واستبقا الباب، ومزقت قميصه من الخلف من عند الرقبة، وفجأة ترى زوجها واقفًا عند الباب، فتبادر بإدانة يوسف عليه السلام "ولم تحاول أن تحميه وهو البريء، فهي كانت مُحبَّة لنفسها ولأهوائها، لا ليوسف ولا للزوج، وتستحل الخديعة والكذب، وهي سريعة في حبك التُّهمة، وإلصاقها بغيرها، وستر الكذب بطلب العقوبة".[٣٤]

إن الآيات القرآنية في تصوير هذه الحادثة؛ لتعطينا إشارة بلاغية غاية في الإيجاز والإعجاز، فقوله: راودته أي فاعلته في إشارة مؤكدة على أنها من قامت بالفعل في تلميح قرآني دون تصريح، ولم يقف القرآن عند هيئة المراودة وألفاظها، وإنما اكتفى بالإشارة السريعة حتى لا يُحرّك الغرائز[٣٥]، ثم إنها بادرت بإغلاق الأبواب حتى تنفرد بالضحية – يوسف عليه السلام – "غلَّقت" أي أحكمت غلقه على صيغة "فعَّلت" أي مرة بعد مرة، ويُقال أنها كانت سبعة أبواب.[٣٦] والسرّ في اختيار تلك الصيغة دون غيرها أن "فعَّل" إنما تأتي للتكثير غالبًا، ومن ثم ناسب ذلك الدلالة على كثرة الأبواب التي غلّقتها امرأة العزيز لتحُول دون تفلّت يوسف منها، وكذلك على إحكام التغليق[٣٧].

إن كافة اللقطات المتتابعة خلال المشهد التصويري أكدت على أن امرأة العزيز هي "الجاني" المخطط والمحرك الرئيس للحدث، فراودته، وأحكمت إغلاق الأبواب، وبعدها انتقلت إلى الجانب القولي، والتأثير السمعي والنفسي، فقالت: هيت لك، فلم يبق منها صراحة في الطلب بعد ذلك.. يقول فضل حسن عباس: وبعد هاتين المحاولتين؟ لم يبق إلا تكلم الصراحة المكشوفة التي تشبه الجنون! إن لم تكنه... فلم يكن هناك مجال بعد الآن، وما تشك أنها ما كانت تنتظر من يوسف عليه السلام، إلا أن يقبل نهمها، كما يقبل السبع الجائع على فريسته".[٣٨]

ولم تكتفي بقولها: هيت، وإنما قالت: لك؛ زيادة في التأكيد على المراد" وبيان المقصود بالخطاب وحرصها عليه"[٣٩] وهنا اكتملت صورة الجاني ودوره في استدراج الضحية، ومحاولة الانقضاض عليها.

وفي المقابل خلال الصورة القرآنية نرى الضحية – يوسف عليه السلام – ولنا أن نستشعر هول المفاجأة التي أصابته .. فيقول: معاذ الله، استنكارًا لفعلها، ورفضًا قاطعًا لطلبها، ويذكرها بالصلاح والعفة، ونهاية الظالمين دون جدوى، فقد تمكنت منها الرغبة في يوسف عليه السلام.

وتتحرك الصورة إلى المشهد الثالث وهو الاستباق إلى الباب، ويأتي الفعل على صيغة "استفعل" للدلالة على القوة والتكثير والحرص في الطلب.(٤٠) وتبدأ المفارقات العجيبة بين الجاني وبين الضحية.. فكلاهما "استبقا الباب" أي تسابق كل منهما للوصول إليه مع اختلاف الغرض؛ فيوسف "الضحية" يحاول الفرار والخروج، وامرأة العزيز "الجاني" تحاول اللحاق به لمنعه ودفعه لداخل الغرفة، وخلال الاستباق "قدّت" قميصه، وفجأة يظهر زوجها عند الباب!

وتتوقف عقارب الساعة مع المشهد الرابع والرئيس من الصورة القرآنية عند التحليل المباشر لتبادل الأدوار بين امرأة العزيز ويوسف ﷺ، فهنا تُحبس الأنفاس للحظة من هول المفاجأة، فماذا سيحدث؟ وما ظن الزوج بها؟ وماذا سيكون عقابه؟ وتتقدم امرأة العزيز خطوة للأمام، وتبدأ في ارتداء قناع الضحية، بعد أن خلعت ثياب الجاني، وتتبادل الأدوار مع يوسف ﷺ أو هكذا تحاول أن تفعل أمام الزوج الذي ينتظر الجواب على ما رأى، ولكنه لا ينتظر كثيرًا:(٤١)

- تتقدم امرأة العزيز خطوة للأمام لتقف أمام يوسف ﷺ.
- تبادر بالحديث فتلقي بالتهمة على يوسف، ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا؟
- قولها: بأهلك؛ تستعطف بها الزوج، فيركن لحديثها أولا.
- تقف موقف المسيطر على الأمور بعد أن ألصقت التهمة بيوسف ﷺ، لتقرر صورة العقاب الذي يستحقه كما تُوهم نفسها.
- حصرت العقاب المنتظر ليوسف ﷺ في أمرين: السجن أو العذاب، والعجيب أنها لم تذكر القتل! ويبدو أن هذا الأمر يرجع إلى عدة أمور في نفس امرأة العزيز منها: أنها على يقين في نفسها ببراءة يوسف ﷺ، وأنها مازالت تحبّه وتخشى عليه القتل إذا ما تُرك القرار للزوج عندما قالت: ما جزاء؛ وما نافية بمعنى ليس جزاؤه إلا السجن.(٤٢)

وعلى الجانب الآخر يوسف عليه السلام حيث تحول ما بين لحظة وأخرى من الضحية إلى الجاني، وها هو يسمع ويشاهد الأدلة تُلقى، والأحكام تُصدر، فما كان منه إلا أن يُدافع عن نفسه في هدوء وخجل مما صدر عن امرأة العزيز، ومن هول المفاجأة، وشدة حيائه عليه السلام يقول: هي راودتني عن نفسي، وفي الإيجاز خير بيان عما حدث خلال اللحظات التي سبقت دخول الزوج وظهوره عند الباب.

ويستمر التصوير القرآني على هذا النسق من تبادل الأدوار بين الجاني والضحية حتى يظهر (شاهد من أهلها) فيأخذ في سرد الأدلة حتى يصل في النهاية إلى الدليل وحكمه ببراءة يوسف عليه السلام – الضحية – ويُسدل الستار على هذا المشهد العام بأشخاصه وأحداثه ونهايته المحركة للنفس من سُباتها، لتتأمل وتعتبر في القصة، وما جاءت به من عبر وعظات " والتركيز على النتيجة الهامة، وهي نُصرة الله لعباده المتقين، وأن الرُّسل والأنبياء مبتلون بما يُبتلى به الناس".(٤٣)

الإيمان بين الزهو وادّعاء الإلوهية

الزهو حالة انفعالية معقدة نلاحظها بين الناس، وهي الإعجاب بالنفس والغرور والتعاظم والكبرياء، وقد يصبح الزهو عند بعض الناس سمة سلوكية تتميز بها شخصيّاتهم. وقد ذم القرآن الزهو والكبر والتعالي على الناس.. والإعجاب بالنفس يؤدي إلى التعاظم والتعالي على الناس ومعاملتهم في تحقير واستكبار. وقد ذم القرآن في كثير من الآيات استكبار المشركين والمنافقين وعنادهم في قبول الحق تكبرًا.(٤٤)

وفرعون من الشخصيات التي أصابها الزهو في أعلى مراحله، وهو من الشخصيات التي ذُكرت خلال عديد من القصص مع موسى عليه السلام وقومه وأهل مصر، وهو من المغرورين "الذين رفضوا دعوة الحق، واتخذوا طريق الضلال سبيلا لهم، فلم يؤمنوا بهدى الله تعالى بعد بيان الهُدى لهم، وقرروا اختيار طريق الضلال، وقد تكرر ذكر شخصية فرعون مع قصة موسى عليه السلام في القرآن؛ ليقرر نهاية الظلم والطغيان والاستبداد، واتخاذ الحكم وسيلة إلى الإفساد في الأرض، واستعباد الخلق وقتلهم،

وجعل الطغيان سببًا في صدّ كثير من الناس عن الإيمان بالله".(٤٥) قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]. ففي شخصيته " تتجسد صفات الكافر عندما يحكم، ولاسيما الغرور والطغيان، والإفساد في الأرض، والمكر السيئ، وعداوة المؤمنين، والعقلية المادية الكافرة التي لا يؤمن صاحبها حتى يدركه الموت".(٤٦) قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس : من الآية ٩٠].

وشخصية فرعون من أوضح النماذج القرآنية على التكبر والغرور والطغيان، وأكثرها تكرارًا في آيات القرآن الكريم، لما في قصصه من عظيم الأثر في النفوس من خلال التصوير القرآني لحالات الغرور والبطش التي تصيبه عند التنكيل بالمؤمنين وأهليهم.. ففرعون سيطر عليه غروره وتكبره حتى سوَّلت له نفسه أنه إلهٌ يستحق أن يُعبد، وأخذ يتقمص هذا الدور.. ويسوق الحجج والأدلة والبراهين على كونه إلهًا.. قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف : ٥١].

وهذا الإدعاء المغرور بأن له مُلك مصر وأرضها، يمثل نفسية كل كافر، وهي تلك النفسية التي تعتز بتملك المادة اعتزازًا شديدًا، لأنها تحرص دائمًا على الدنيا وتحب متاعها حُبًّا جمّا، ومن ثمَّ يعشق كل ما تجلبه السلطة والثروة من مظاهر كاذبة ومزايا خادعة: كأبهة المُلك، وزينة المواكب، وقوة الجيوش، وترف القصور، والاستمتاع الفاجر بكل أنواع المتع، والاستعلاء الواقع على عبادة الله".(٤٧)

والإنسان الكافر حين تتبدل نفسيته، ويسيطر عليه الغرور والعناد، يشعر بذاته، ويرى أن رأيه دائمًا هو الصواب، فلا رأي غير رأيه، ولا صواب إلا في قراره.. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر : من الآية ٢٩]. "وهو حوار تسفيهي؛ يسير به أصحابه على حصر الصواب في جهتهم فلا رأي

إلا رأيهم.. ولا يكتفي أصحاب هذا اللون بذلك بل يعمدون إلى تسفيه كل وجهة تخالفهم" ومن ذلك مقولة فرعون عن موسى عليه السلام وعن إله موسى ﷻ : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف : ٥٢].

لقد تكبّر فرعون وادّعى الإلوهية، وحاول أن يطمح بنفسه المريضة بأن يضعها في مقارنة مع إله موسى عليه السلام، وادّعى لنفسه دورًا فوق طاقة البشر، بل إنه في حالات كثيرة كان يسخر من موسى عليه السلام وإلهه ﷻ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص : ٣٨]. وكعادة فرعون في الردّ على موسى عليه السلام فكان يدفع الحجة "بشبهة يروجها على أغمار قومه... فقد نفى وجود إله، ثم أثبت الإلوهية لنفسه"![٤٨]

والمتتبع لحديث فرعون وتقمصه دور الإله يجد فيه استخفافًا بعقول قومه، وما ذلك إلا إحساسًا بالزهو وتملك الغرور منه حتى أعمى بصره وبصيرته؛ فالكون من حوله آيات باهرات على فساد حجته .. فنراه يقول:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: من الآية ١٢٣]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: من الآية ٣٨]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر : ٢٦]

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر : من الآية ٢٩].

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف : ٥١].

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف : ٥٤].

لقد استخف عقول قومه، وساق لهم الحجج الباطلة على إلوهيته، فما دعاهم إلى رشد أو خير أو نجاة، لقد أضلهم وصرفهم عن الهداية بعد أن جاءتهم مع موسى عليه السلام، وادّعى الإلوهية وتابعوه في دعواه، وأطاعوه فيما دعاهم إليه من الكفر.(٤٩) "لقد صادر عقول المصريين وأفهامهم، واعتبر نفسه الوحيد الذي ينطق بالحقيقة والهداية والرشد، وما سواه سفيهًا لا يؤبه لقوله".(٥٠)

وحين تأتي لحظة الحقيقة، ويقترب الموت من فرعون وجنوده، حينها فقط يتقمص دورًا جديدًا لم يعهده من قبل، ولم نعرفه به بعيدًا عن الزهو والغرور، بل تواضع واستعطاف وانكسار، وهنا يُبدّل دوره المعهود به، فنراه يتوسل رافعًا صوته ليُعلن أنه آمن، وصدّق موسى، فيتخلى عن غروره وكبريائه وغطرسته، ويرتدي ثياب التائب العائد إلى كنف ربه، فيشعرك بهذا التحول العجيب في شخصيته ودوره الذي لعبه طوال الأحداث السابقة.. قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس : ٩٠] ..

قال: آمنت، وقال: لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وقال: وأنا من المسلمين!!!

لقد تنازل عن دوره الموسوم به من زهو وغرور وغطرسة وفساد إلى درجة أنه يُعلن إيمانه ثلاث مرات متتالية، ولكن بعض المفسرين يُعلل هذا التكرار والإصرار على إعلان توبته فيقول:(٥١)

الأول: أنه آمن عند نزول العذاب، والإيمان في هذا الوقت غير مقبول.

الثاني: أنه إنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة.

الثالث: هو أن ذلك الإقرار كان مبنيًّا على محض التقليد... فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله، وإنما سمع من بني إسرائيل أن للعالم إلهًا، فهو أقرّ بذلك الإله كبني إسرائيل، فكان هذا محض تقليد.

فهذا الدور الذي يدَّعيه فرعون هو وليد اللحظة والحدث، ليس عن قناعة أو إيمان صادق، وإنما كان قناعًا عرضيًّا ارتداه في محاولة يائسة للخلاص من محنته، وعادته في ذلك كعادة قومه حينما كان ينزل بهم البلاء، فيهرولون إلى موسى كي يدعو لهم ربه، حتى إذا صرف الله البلاء عنهم إذا بهم يكفرون ويكذبون.. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف : ١٣٤ – ١٣٥].

وهذا الأمر "ما كانوا عليه من المناقضة القبيحة، لأنهم تارة يكذبون موسىعليه السلام وأخرى عند الشدائد يفزعون إليه نزع الأمة إلى نبيّها، ويسألونه أن يسأل ربّه رفع ذلك العذاب عنهم، وذلك يقتضي أنهم سلّموا إليه كونه مُجاب الدعوة، ثم بعد زوال تلك الشدائد يعودون إلى تكذيبه والطعن فيه".(٥٢)

الأنبياء بين الشخصية المحورية والثانوية

استطاعت الصورة القرآنية رسم شخصياتها بكل دقة في حديثها وتفكيرها وانفعالاتها، ونالت شخصيات الرُّسل والأنبياء الاهتمام الأكبر خلال الصورة القرآنية.. وجاء تكرار بعض الشخصيات القرآنية بصورة ملحوظة، من بينها قصة موسى عليه السلام، فكانت أكثرها تكرارًا وتنوعًا، فعرضت الصورة القرآنية لحياة موسى عليه السلام منذ مولده ونشأته ودعوته فرعون للهداية ومواجهة السحرة، وأيضا علاقته بقومه من بني إسرائيل، وكانت شخصيته عليه السلام؛ شخصية محورية خلال التصوير القرآني للأحداث.

غير أن هناك مشهد تصويري متعدد اللقطات يجمع بين موسى عليه السلام والخضر – العبد الصالح – وخلال هذا المشهد التصويري لأحداث القصة بين موسى والخضر حدث أمر جديد في طريقة سرد الأحداث، وتسليط الضوء على الشخصيات وأدوارها، فتحوّل دور موسى من نبيٍّ ورسول إلى بني إسرائيل، وإلى فرعون وقومه،

يهديهم ويرشدهم ويكون لهم المُعلّم والمرشد، ليتحول إلى تابع للخضر، يسأله ويتعلم منه، بكل صفات التواضع والصبر من الطالب تجاه المعلم.

كان موسى عليه السلام شديد الولع بالعلم، وكأنه أحسّ لكونه نبي عصره لا ينبغي أن يكون على وجه الأرض من هو أعلم منه، فليس قبل النبوة منزلة، لكنه عرف أن هناك شخصًا لديه من العلم ما لم يبلغه هو، وهو الخضر، فطلب من ربّه أن يدّله على مكانه فدلّه.(٥٣) قال تعالى من سورة الكهف: **فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾**

إن الحوار خلال هذه اللوحة التصويرية لقصة موسى عليه السلام والخضر، لنتعلم منه عدة أمور تتعلق بأدب الحوار، فموسى عليه السلام يتلطف في سؤاله للخضر حين يطلب إليه أن يُعلِّمه، والخضر يجيب عن سؤاله إجابة حكيم.(٥٤) ولا ينتهي المشهد بسؤال وجواب، ولكن الأمر تعدى إلى تبادل للأدوار بين موسى والخضر، أو على الأقل لدور موسى عليه السلام المعروف به من قيادة ودعوة وعلم وإرشاد، وشخصية محورية خلال أحداث القصص القرآني المرتبط به وبرسالته ودعوته لقومه، وتتراجع هذه الشخصية خطوة للخلف لتقف على مقربة من الخضر، وتتغير لغة الحوار عما هو

معهود، ويبدأ دور جديد لشخصية موسى ﷺ؛ في حين نرى شخصية الخضر متقدمة خطوة للأمام دائمًا، كشخصية محورية رئيسة في الأحداث. ولم نعلم عنه شيئا من القرآن سوى أنه: عبد من عباد الله، أتاه الله رحمة من لدنه، وآتاه علمًا، فقوله: عبد من عبادنا "تمثل شخصية ضبابية لنا" لكنها تملك رحمة من عند الله، وتملك علمًا ربانيًّا لا نستطيع أن نُحدد مداه.

إن الدور الجديد لموسى ﷺ في مقعد الطالب لا يقلل " من منزلته بأن يكون هناك من هو أعلم منه في أي شيء خارج صفة النبوة والرسالة، بل مما يزيده فضلا وشرفًا أن يتلمس العلم ويستفيده ممن هو دونه، كما حاول مع الخضر".(٥٥) لذلك وجدنا موسى ﷺ قد راعى أنواعًا كثيرة من الأدب واللطف من طالب يتطلع تجاه أستاذه ومعلمه الخضر، فماذا صنع موسى ﷺ من سمات طالب العلم المتواضع؟(٥٦)

أولا: تلطف في السؤال باستفهام للعرض والرجاء (هل اتبعك؟)
ثانيا: المبالغة في التواضع بأن جعل نفسه تابعًا للخضر(اتبعك).
ثالثا: الإقرار بعلم الخضر وجهل موسى ﷺ (أن تُعلمني)
رابعا: التواضع في طلب بعض العلم، وليس كل العلم (مما عُلّمت)
خامسا: الاعتراف بأن علم الخضر من لدن الله، فليس عند البشر (عُلّمت)
سادسًا: طلب العلم بهداية ورشد، وتلطف في معاملة الخضر لموسىﷺ (رشدا)
سابعًا: الإقرار المطلق بالتبعية للخضر في جميع الأمور (ولا أعصي لك أمرًا).

فنجد أن موسى ﷺ؛ النبي الرّسول أحد أولي العزم من الرُّسل، يتواضع في طلب العلم لحدِّ الاستئذان والتواضع والإقرار بعلم الخضر، والاعتراف بفضله وعلمه عليه " والذي يُفهم من سياق القصة أنه كان لموسى ﷺ هدف من رحلته هذه، وأنه كان يقصد من ورائها أمرًا، ومن ذلك نرى أن موسى ﷺ قد وضع الهدف في ذهنه، وصمّم على بلوغ غايته مهما كلّفه الأمر".(٥٧) فهو لم يترك فرصة أمام الخضر كي يرفض طلبه، فقد تلطف في طلبه لحدّ التوسّل والرجاء، وأعلن علم الخضر وجهله هو بكثير من الأمور، ومع الإقرار والتوسل والرجاء اشترط على الخضر أن يعلمه بعضًا

مما عنده من العلم "مما عُلمت" لتهوين الأمر على الخضر، ويجيب الخضر على طلبه: إنك لن تستطيع معي صبرًا.

"وحين وجّه الخضر سؤاله إلى موسى عليه السلام عن كيفية صبره على ما يجهل السبب فيه أو المبيح له، لجأ موسى إلى ما يُعرف بأسلوب الحكيم، وهو تجاهل السؤال، والإجابة بما يتطلبه الموقف، فلم يُجب الخضر على سؤاله، وكأنه يقول له: لا يعنيك كيف أصبر، إنما يعنيك ما تريده، وهو أن تجدني صابرًا أثناء صحبتي لك.[٥٨] فموسى سيصبر، ولن يعصي له أمرًا؛ إنه تواضع من خُلق الأنبياء والرسل.

وتتشابك خيوط الصورة القرآنية خلال أحداث القصة، حين يمضي الخضر كشخصية محورية تتحكم في الأحداث، ومن خلفه موسى عليه السلام يتعجب ويسأل ولا يجيبه الخضر إلا في النهاية. "فنحن أمام مفاجآت متوالية لا نعلم لها سرًّا، وموقفنا منها كموقف سيدنا موسى، بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة، ولا ينبئنا القرآن سوى باسمه، تكملة لهذا الجو الغامض الذي يحيط بنا، وليس يراد من هذه الشخصية الغامضة أكثر من أن تتمثل حكمة الغيب العليا، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة".[٥٩]

لقد ساهم غموض شخصية الخضر في هذا الإيحاء العجيب وراء تصرفاته، ويبدو أن الجميع ما بين مستمع وقارئ ومتخيّل لهذا المشهد يقع في نفس الحيرة التي أصابت موسى عليه السلام ولكنها في النهاية تؤكد على أن "الخضر" كان الشخصية المحورية التي تمسك بزمام الأحداث، وظل الجميع حتى النهاية في حالة من الترقب والتشويق، مع كثير من علامات الاستفهام، وكثير من المفاجآت.

وكما يقول عبد القاهر الجرجاني: ومن المركوز في الطباع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه في النفس أجل وألطف، وكان به أضن وأشغف".[٦٠]

خاتمة البحث

من خلال هذه الإطلالة على فكرة تبادل الأدوار في الصورة القرآنية؛ يتوقف البحث عند بعض النقاط الساطعة التي يمكن الخروج منها ببعض النتائج التالية:

إن القرآن الكريم مُعجزٌ في نظمه، وسرده القصصي، ونسج صوره الفنية التي تحقق الأثر الأكبر في نفس المتلقي، وتعمل على زيادة التشويق القصصي، والمشاركة النفسية والفكرية في سير الأحداث من خلال السرد والترقب والتشويق والإثارة ثم تعاقب المفاجآت خلال الأحداث القرآنية.

وكشفت الصورة القرآنية أن الشيطان قد يئس من رحمة الله منذ أن خلق الله آدم عليه السلام، ثم عصى إبليس أمر ربّه بالسجود لآدم، ومنذ ذلك الحين والشيطان يترصد بني آدم وذريتهم، فيوسوس لهم، ويغري بهم من خلال الحرص على الحياة، والحكم والسيطرة، وما ذلك إلا رغبة في ضلالهم، وكُرهًا وحسدًا لمكانة بني آدم عند ربهم.

واستطاعت الصورة القرآنية بيان ملامح الإغراء الشيطاني، ووسائله المتعددة في إطار تصويريّ درامي من خلال تقمص الشيطان دور الواعظ والمرشد.. الحريص على مصلحة آدم وزوجه، فيقسم ويؤكد على أنّه الناصح الأمين، فكشف هذا الدور الشيطاني الجديد عن أساليب متعددة للغواية الشيطانية من الوسوسة والإغراء وقراءة النفوس، ومخاطبتها بحب الدنيا والسلطة والخلود.

كما كشفت الصورة القرآنية عن نوع فريد من ثبات العقيدة، وقوة الإيمان، والثقة والإيمان المطلق بقضاء الله وقدره، وأن الصبر على ابتلاء الله للعبد هو من أعلى مراتب الإيمان، وكانت قصة إبراهيم عليه السلام وولده الذبيح إسماعيل أكبر شاهد على ذلك، فقد تبدَّلت الأدوار النفسية والاجتماعية للوالد مع ولده؛ فالوالد يتحول دوره من المربّي والحامي لولده إلى المُضحّي به ذبحًا قربانًا إلى الله وتحقيقًا لرؤية ربانية.

وجاء القرآن الكريم بوصف عجيب لقوم لوط عليه السلام، وكشف عن تبادل للأدوار في طباع البشر وفطرتهم السليمة، وانصرافهم عن الهداية والعفة والطهارة إلى الوقوع

في براثن كبيرة من أعظم الكبائر التي لم يأتِها قبلهم أحد من العالمين، وكشف هذا عن العناد والجهر بالمعصية، وفساد الطوية، وتحكم غرائزهم في عقولهم وأفعالهم، حتى صار الموقف مضطربًا؛ ما بين الجهر بالمعاصي واستخدام القوة والمطالبة علانية بارتكاب المعاصي، وفي ذات الوقت نرى المؤمن الحق يتحدث من موقف الضعيف الذي يستنكر أفعالهم وكفرهم بلا حول له ولا قوة.

وجاء التصوير القرآني من خلال تبادل الأدوار بنوع من التشويق الدرامي في قصة يوسف عليه السلام وامرأة العزيز، وتقمص المرأة لدور الضحية، وذلك في مفارقة عجيبة بعد كل الوصف والترتيبات التي جاء بها القرآن خلال طريقته الفريدة في الحبكة القصصية، وإشاعة جو من الترقب والغموض ثم الإثارة والإغراء، في أحداث متتالية متلاحقة، ثم المفاجأة والصمت الطويل، ثم يأتي الشرح والتحليل والبرهان.

وأظهر تبادل الأدوار خلال الصورة القرآنية عن صورة "فرعون" الكافر المتكبر المغرور بماله وسلطانه وجبروته وبطشه بقومه وبالمؤمنين من قوم موسى عليه السلام حتى تحول هذا الزهو بالنفس إلى جنون يسيطر على أقواله وأفعاله، ومن ثم ادعاء الإلوهية.. ومن ثمّ كشف التصوير القرآني عن عديد من الأمراض النفسية في هذه الشخصية.. فهي شخصية عنيدة ومغرورة ومتكبرة، وفاسدة العقل والقلب.. تأتي بأقوال وأفعال هي أقرب ما تكون سخرية من صاحبها بحججه الضعيفة، وأقواله الساذجة، وخداعه لقومه وإضلالهم، ثم تتحوَّل الشخصية فجأة بلا مقدمات من كفر وغرور وتكبر إلى لإيمان وتسليم واستسلام حين أدركه الغرق!

وكشفت الصورة القرآنية من خلال تبادل الأدوار في قصة موسى والخضر عن عظيم الخصال لدى الأنبياء أولا، ولدى طلبة العلم ثانيا، ما بين الصبر، والتلطف في السؤال، والتواضع، والإقرار بعلم الأستاذ، وعدم إرهاقه بكثرة السؤال، والحرص

الدائم على اكتساب العلم والهُدى والرشاد، وأنه ليس هناك نهاية للعلم، وأن العلم ببواطن الأمور وخفايا النفوس يأتي من لدن الله وحده.

لقد ساهمت فكرة تبادل الأدوار خلال الصورة القرآنية في الكشف عن الآثار النفسية والاجتماعية والدينية المترتبة على عديد من القصص القرآني وشخصياته من خلال إشاعة نوع من التشويق والإثارة والترقب أحيانًا، وأيضًا إشاعة التعجب والسخرية والاستنكار أحيانًا أخرى في إطار من المفارقات التي تطرأ على الأحداث وطبيعة الحوار بين الشخصيات وسلوكياتهم، وإعطاء لمحات متضادة لبعض الشخصيات قبل وبعد تبادلها الأدوار.

هـوامـش البحـث

(١): انظر **عبـد القـاهر الجرجـاني**: دلائل الإعجاز، تـح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ٢٠٠٤م، والجاحظ: البيان والتبيين، تـح: عبد السلام هارون، البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م، وصلاح عبدالتواب: الصورة الأدبية في القرآن، لونجمان، مصر، ١٩٩٥م، وجابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م، وحفني شرف: الصورة الفنية، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥م، وسيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، مصر، ١٩٧٨م.

(٢): **أيمـن الصيـاد**: فنيات التصوير الحركي في القرآن الكريم، دار الوفاء، مصر، ٢٠٠٩م، ص ١٤.

(٣): **أحمد مختـار عمر**: المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن، مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، ٢٠٠٢م، ص٢٦٦.

(٤): **عمـر الأشـقر**: عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، بيروت، ١٩٨١من ص ١٦.

(٥): **انظر العقاد**: إبليس، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٢٥-٣١.

(٦): **الشعراوي**: الشيطان والإنسان، أخبار اليوم، مصر، ١٩٩٨م، ص ٥٢.

(٧): **ضـفاف هاشـم**: فكرة التحريض في قصة آدم، مجلة كلية التربية، بغداد، عدد ٢٠٢، ٢٠١٢م، ص ٦٦٨.

(٨): **الـرازي**: التفسير الكبير، ج١٠٨/٢٢، وانظر الزمخشري: الكشاف، ج٩٠/٢، والقرطبي: ج١٧٧/٧.

(٩): **محمد نجاتي**: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، مصر، ٢٠٠٤م، ص ٣٠.

(١٠): **عبدالرحمن عباد**: الحوار في القرآن، مجلة جامعة القدس للأبحاث والدراسات، عدد ٥، ٢٠٠٥م، ص ١٦٩.

(١١): **ابن قيم الجوزية**، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج١/١٣٠.

(١٢): **محمد محيي الدين الدرويش**: إعراب القرآن وبيانه، مج٢/٥٢٩، ومج٤/٧٣٢، وانظر الزمخشري: ج٢/٩٠.

(١٣): **عبدالسلام اللوح**: خطوات الشيطان، مجلة الجامعة الإسلامية، فلسطين، مج١٦/ عدد ١/ ٢٠٠٨م، ص ١٥١.

(١٤): **محمد رجب بيومي**: قصص القرآن دروس وعبر، دار الإيمان، مصر، ٢٠٠٤م، ص ١٥١-١٥٢.

(١٥): انظر **الزمخشري**: الكشاف، ج٤/٥٥-٥٦، والرازي: التفسير الكبير، ج٢٦/١٢٤-١٢٥.

(١٦): **عبد الحليم حفني**: أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٩م، ص ١٦٢. وانظر سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧م، مج٥/٢٩٩٤ – ٢٩٩٥.

(١٧): المرجع نفسه، ص ١٦٤.

(١٨) : **عبد الرحمن عباد**: الحوار في القرآن الكريم، ص ٢٠٠.

(١٩): **الزمخشري**: الكشاف، ج٤/٥٦.

(٢٠): **يوسف الطحان**: السمات الأسلوبية في القصة القرآنية، مجلة كلية التربية، الموصل، عدد٣/٢٠١١م، ص ١٦٦.

(٢١): **علي الحمود**: من أساليب التشويق في قصص القرآن، مجلة العلوم العربية، عدد١٤/١٤٣١هـ، ص ١٦٦ .

(٢٢): **بلقاسم الغالي**: ملامح الإعجاز النفسي في القرآن، مجلة جامعة الشارقة، مجلد٤/عدد١/٢٠٠٧م، ص ١٠.

(٢٣): **التهامي نقرة**: سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٤م، ص ٣٦٤.

(٢٤): **علي العبيدي**: آيات قوم لوط ، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، عدد٢٣/٢٠١١م، ص ١٧٩ .

(٢٥): **بلقاسم الغالي**: ملامح الإعجاز النفسي في القرآن الكريم، ص ١٠.

(٢٦): **علي البجاوي وآخرون**: قصص القرآن، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٣٩م، ص ٧١.

(٢٧): **عبد الكريم زيدان**: المستفاد من قصص القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٢٢٩.

(٢٨): انظر **القرطبي**: ج٣/٢٦٥، والتفسير الكبير: ج١٨/٢٧، والشعراوي: ج١١/٦٥٧٧.

(٢٩): أنظر **محمد محيي الدين الدرويش**: إعراب القرآن وبيانه، مج ٣/ ٤٦٣.

(٣٠): انظر **حبيب مونسي**: آليات المشهد القرآني، مجلة التراث العربي، عدد ٩١/٢٠٠٣م، ص ١٤٦.

(٣١): **محمد نجاتي**: القرآن وعلم النفس، ص ٦٧.

(٣٢): **أحمد فريد**: تيسير المنان في قصص القرآن، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٤٢٩هـ، ص ٢٠٨.

(٣٣): انظر **الشعراوي**: التفسير، ج ١١/ ٩٦٠٤ – ٦٩٢٤ .

(٣٤): **محمود شلبي**: حياة يوسف، مكتبة القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٧٧– ٧٨ .

(٣٥): انظر **عويض العطوي**: جماليات النظم القرآني في قصة المراودة، الرياض، ١٤٣١هـ، ص ٢٥.

(٣٦): انظر **لسان العرب**: ج١٠/٢٩١، مادة (غلق)، وانظر القرطبي: ج٩/١٦٢ .

(٣٧): انظر **عبدالحميد هنداوي**: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٢٧.

(٣٨): **فضل حسن عباس:** قصص القرآن الكريم، دار النفائس، الأردن، ٢٠٠٧م، ص ٣٨١.

(٣٩): **انظر عويض العطوي:** جماليات النظم في قصة المراودة، ص ٣٠.

(٤٠): **انظر ابن فارس:** الصاحبي، ص ٣٧٠، وابن عصفور: الممتع في الصرف، ج١/١٩٥.

(٤١): **أنظر أيمن الصياد:** التصوير الحركي في القرآن الكريم، ص ٤٢.

(٤٢): **انظر الزمخشري:** الكشاف، ج٢/٤٥٩.

(٤٣): **عبد الكريم الخطيب:** قصتا آدم ويوسف، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٧٤م، ص ٧٩.

(٤٤): **محمد نجاتي:** القرآن وعلم النفس، ص ١٠٦- ١٠٧ .

(٤٥): **سعيد عبد السلام:** القصة القرآنية، مجلة الباحث الجامعي، جامعة تعز، عدد ١٦، ٢٠٠٨م، ص ٦٥.

(٤٦): **أحمد غراب** الشخصية الإنسانية في ضوء القرآن، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٥م، ص ١٤٤.

(٤٧): المرجع نفسه: ص ١٢٦.

(٤٨): انظر **الرازي:** التفسير الكبير، ج٢٤/ ٢١٥.

(٤٩): انظر **عبد الكريم زيدان،** المستفاد من قصص القرآن، ص ٣٣٦.

(٥٠): **محمد أبو الفوارس:** إن فرعون علا في الأرض، دار الفرقان، الأردن، ١٩٩٨م، ص ١٩.

(٥١): انظر **الرازي:** التفسير الكبير، ج١٧ / ١٢٣ .

(٥٢): **الرازي:** التفسير الكبير، ج١٤/١٧٩، وانظر الزمخشري: الكشاف، ج٢/١٣٩، والقرطبي: ج٩/٤٠.

(٥٣): **عبد الحليم حفني:** أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ص ١٤٦.

(٥٤): **انظر عبد الرحمن عباد:** الحوار في القرآن الكريم، ص ٢٠٢ .

(٥٥): **عبد الحليم حفني:** أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ص ١٤٩.

(٥٦): **انظر الرازي:** التفسير الكبير، ج٢١/١٢١-١٢٩، والشعراوي: ج١٤/٨٩٥٥-٨٩٧٢.

(٥٧) : **سعيد الصوافي:** الجوانب التربوية في قصة موسى مع العبد الصالح، مجلة الدراسات التربوية، جامعة السلطان قابوس، مج ٥ ، عدد ٢، ٢٠١١م، ص ٥.

(٥٨) : **عبد الحليم حفني:** أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، ص ١٥٥.

(٥٩) : **صلاح عبد التواب:** الصورة الأدبية في القرآن الكريم، ص ٩٥.

(٦٠) : **عبد القاهر الجرجاني:** أسرار البلاغة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١١٨.

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم

الأشقر؛ عمر: عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، بيروت، ١٩٨١م.

البجاوي؛ علي وآخرون: قصص القرآن، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٣٩م.

بيومي؛ محمد رجب: قصص القرآن دروس وعبر، دار الإيمان، مصر، ٢٠٠٤م.

الجاحظ: البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.

الجرجاني؛ عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ٢٠٠٤م. وأسرار البلاغة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣م.

الجيوسي؛ عبدالله: أسلوب الحوار في القرآن الكريم، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مج٢ / عدد ٢ / ٢٠٠٦م.

حفني؛ عبد الحليم: أسلوب المحاورة في القرآن، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٩م.

الحمود؛ علي: من أساليب التشويق في قصص القرآن، مجلة العلوم العربية، عدد١٤/١٤٣١هـ.

الخطيب؛ عبد الكريم: قصتا آدم ويوسف، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٧٤م

الدرويش؛ محمد محيي الدين: إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٩٩م.

الرازي؛ فخر الدين: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

الزمخشري؛ محمود بن عمر: الكشاف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦م.

زيدان؛ عبد الكريم: المستفاد من قصص القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.

شرف؛ حفني: الصورة الفنية، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥م.

الشعراوي؛ محمد متولي: التفسير، دار أخبار اليوم، مصر، ١٩٩٦م.

والشيطان والإنسان، أخبار اليوم، مصر، ١٩٩٨م.

شلبي؛ محمود: حياة يوسف، مكتبة القاهرة، ١٩٦٧م.

الصوافي؛ سعيد: الجوانب التربوية في قصة موسى مع العبد الصالح، مجلة الدراسات التربوية، جامعة السلطان قابوس، مج ٥، عدد ٢، ٢٠١١م.

الصياد؛ أيمن: فنيات التصوير الحركي في القرآن الكريم، دار الوفاء، مصر، ٢٠٠٩م

الطبري؛ محمد بن جرير: جامع البيان، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

الطحان؛ يوسف: السمات الأسلوبية في القصة القرآنية، مجلة كلية التربية، الموصل، عدد٣/٢٠١١م.

عباد؛ عبد الرحمن: الحوار في القرآن، مجلة جامعة القدس للأبحاث والدراسات، عدد ٥، ٢٠٠٥م

عباس؛ فضل حسن: قصص القرآن الكريم، دار النفائس، الأردن، ٢٠٠٧م.

عبد التواب؛ صلاح: الصورة الأدبية في القرآن، لونجمان، مصر، ١٩٩٥م.

عبد السلام؛ سعيد: القصة القرآنية،الباحث الجامعي، جامعة تعز، عدد ١٦، ٢٠٠٨م

العبيدي؛ علي: آيات قوم لوط ، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، العراق، عدد٢٣/٢٠١١م.

عصفور؛ جابر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م.

العقاد؛ عباس محمود: إبليس، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٥م.

عمـر؛ أحمد مختار: المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن، مؤسسة سطور المعرفة، الرياض، ٢٠٠٢م.

العطوي؛ عويض: جماليات النظم القرآني في قصة المراودة، الرياض، ١٤٣١هـ.

الغـالي؛ بلقاسم: ملامح الإعجاز النفسي في القرآن، مجلة جامعة الشارقة، مجلد٤/عدد١/٢٠٠٧م

غراب؛ أحمد: الشخصية الإنسانية في ضوء القرآن، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٥م.

فريد؛ أحمد: تيسير المنان في قصص القرآن، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٤٢٩هـ.

أبو الفوارس؛ محمد: إن فرعون علا في الأرض، دار الفرقان، الأردن، ١٩٩٨م.

القرطبي؛ محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، مصر، ١٩٦٤م.

قطب؛ سيد: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، مصر، ١٩٧٨م.

في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٧م.

ابن قيم؛ الجوزية: ، إغاثة اللهفان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

اللـوح؛ عبد السلام: خطوات الشيطان، مجلة الجامعة الإسلامية، فلسطين، مج١٦/ عدد ١/ ٢٠٠٨م

ابن منظور؛ محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٨٣م.

مونسي؛ حبيب: آليات المشهد القرآني، مجلة التراث العربي، عدد ٢٠٠٣/٩١م.

نجاتي؛ محمد عثمان: القرآن وعلم النفس، دار الشروق، مصر، ٢٠٠٤م.

نقرة؛ التهامي: سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٤م.

هاشم؛ ضفاف: فكرة التحريض في قصة آدم، مجلة كلية التربية، بغداد، عدد ٢٠٢، ٢٠١٢م

هنداوي؛ عبدالحميد: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م.